

الفصل الثاني عشر

النثر الجاهلي

١

صور النثر الجاهلي

حين نتحدث عن النثر الجاهلي ننحى النثر العادي الذي يتخاطب به الناس في شؤون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شيء منه أدباً إلا ما قد يجري فيه من أمثال ، إنما الذي يُعدّ أدباً حقاً هو النثر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قصصاً وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبّرة . ويسمى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفني .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثمّ استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية^(١) . ولا ينقض ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن سوّيد بن الصامت قدم مكة حاجباً أو معتمراً .. فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سوّيد : ففعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذي معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها عليّ ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذي معي أفضل من هذا : قرآن أنزله الله عليّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا القول حسن^(٢) .. «

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي (٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي)

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونوه إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزعم ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وُجِدَت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشغغون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يُرْخى الليل سُدوله يجتمعون للسمير ، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث ، وشبابُ الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفِيضُ القَصَصَ على قصصه من خياله وفنه ، حتى يبهير سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى محبة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدِّ ، وعيونهم تلمع في وجوههم السمُرُ وقلوبهم تخفق من أن إلى أن، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القَصَصِ الذي كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دونوا لنا ما انتهى لإيهم منه، وطبعي أن تتغير وتتحرّف أصوله في أثناء هذه الرحلة الطويلة التي قطعها من العصر الجاهلي إلى القرن الثاني الهجري ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيوته .

ويمكننا بواسطة ما دوّنه العباسيون أن نعرف ألوان هذا القَصَصِ الذي كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالم فيها من انتصارات مروّعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويو القرن الثاني للهجرة ورؤاته، فدوّنوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم في غير هذا الموضوع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبّاء ، مما نجده مبثوثاً في تاريخ الطبري وفي السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبي الفرج في أغانيه ، ومن المحقق أن كثيراً من هذا القصص يخالف التاريخ الحقيقي لهؤلاء الملوك، على نحو ما هو معروف عن قصة الزبّاء ، فإنها لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الروماني الصحيحة^(١) حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حُرِّفَ إلى الزبّاء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباهما كان يُدعى زبّاي ، فنسبوا إليه وقالوا بنت زبّاي ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف حسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزبّاء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حوّلهم وشُجعانهم، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن النّضر بن الحارث كان من شياطين قريش ومن كان يؤذّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصبُ له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُسّم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً، فذكر فيه بالله، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل ليّ ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُسّم وإسفنديار^(٢) . . .

وما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيراً عن كُهانهم وشعرائهم رسادتهم ، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب معيّناً لا ينضب من الأخبار ، وارجع إلى تراجم صاحب الأغاني فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصص الهوى ، كقصة المرقش الأكبر وصاحبه أسماء بنت عوف، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها، واعتذار الأب له بجدائة سنه وأنه لم يُعرف بعد بشجاعة، وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك ومدّ يده له وبقائه عنده زمناً، وفي هذه الأثناء أصاب عَوْفاً زمان شديد،

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ١/٣٢١

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي

٩٩/٣ وما بعدها .

فأتاه رجل من مُراد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة المرقش لا تخبروه بخبرها حين يرجع، بل قواوا له إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشاً، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها، ويتوسل إليه أن يحدّثها عنه، فيقول له: إني لا أستطيع أن أدنو منها، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عسّاً، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبت فألقه في اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدر وحلب لها العسّ طرحت الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء. فلما سكنت الرعثة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، ففرغ الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالي به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعاً، فقال لها: لم دعوتني؟ قالت له: ادعُ عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سلته أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل في كهف خبّان، فقال لي: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرني من هو، ولقد تركته بآخر رمق. فقال له زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرّقاها من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلها، فمات عند أسماء وقال: قبل أن يموت:

سَرَى لَيْلَا خِيَالُ مِنْ سُلَيْمَى	فَارَقْنِي وَأَصْحَابِي هَجُودُ
فَبِتُّ أُدِيرُ أَمْرِي كُلِّ حَالٍ	وَأَذْكَرُ أَهْلَهَا وَهُمْ بَعِيدُ
سَكَنُ بَيْلِدَةٍ وَسَكَنْتُ أُخْرَى	وَقُطِّعَتِ الْمَوَاتِقُ وَالْعَهْدُ
فَمَا بَالِي أَمِي وَيُخَانُ عَهْدِي	وَمَا بَالِي أَصَادُ وَلَا أَصِيدُ

ثم مات فدفن في أرض مُراد^(١).

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٩/٦ وما بعدها.

ولم تَسُقْ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التي دارت في الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكننا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها في الجاهلية ، وما كان يتيح القَصَّاص لملها من عناصر التشويق، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله، وتارة بما يضيف إليها من أشعار، وقد يضيف إليها أمثالا، على نحو ما نعرف في قصة الزبَاء، وهي تتضمن عند الضبيّ اثني عشر مثلاً^(١) .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب^(٢) كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويدخل في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيرانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب^(٣)، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبي على هذه الشاكلة^(٤) :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما ، فأجذبت بلادهما ، وكان قريبا منهما واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أتى أبيت هذا الوادي المُكَّابِي ، فرعيت فيه إبلي وأصلحتها ، فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحدا لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطن . فهبط ذلك الوادي ، فرعا إبله به زماناً ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما في الحياة بعد أخي خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي . فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألمت ترى أني قتلت أخاك ، فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم . قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال : فإني أفعل . فحلف لها وأعطاها الموائيق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثرت ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالاً . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدّها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت البحر ،

(١) أمثال العرب للمفضل الضبي (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .
(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/١٠٢ .
(٣) انظر كتاب الأمثال في النثر العربي القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .
(٤) أمثال العرب للضبي ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها، فأثربه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم ، فقال لها : هل لك في أن نتعاقد (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلا مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بنى مرة) :

وإني لألتي من ذوى الضغن منهمُ بلا عثرة ، والنفس لا بُدُّ عاثره
 كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكت الأمثالُ في الناس سائره
 ويُنسِدُ الضبي بقية القطعة التي يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك في الأبيات كما نشك في أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى، وإن كنا في الوقت نفسه نظن ظناً أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى في بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود، والذي تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف في قصص إيسوب اليونانى، وبين قصصه الزارع والحية^(١) ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعاً .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل في أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو في صورة امرأة عداً رجلها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تترامى الجن في صورة الثيران والكلاب والنعام والسنور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويسبرين . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها في كتب الأساطير والعجائب التي ألّفت في العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لنؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئاً من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً ، ولذلك كنا نهمه جملة ، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

(١) انظر الأمثال في النثر العربى القديم ص ٤٣ .

الأمثال

إذا كان القصص الذى أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلى بحكم تأخره فى التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تتغير ، وأن تظل طويلا بصورتها الأصلية ، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ، إذ ألف فيها صُحَّار العبَّسِيَّ أحد النسَّابِيْنَ فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عبَّيد بن شَرِيَّة معاصره كتاباً آخر ، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة^(١) . وإذا انتقلنا إلى القرن الثانى وجدنا التأليف فى الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبى ، ونمضى إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبَّيد البكرى باسم « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبَّيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات فى الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه « جمهرة الأمثال » ويخلفه الميدانى ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يروى على خمسين كتاباً . ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التى تسمى مثلاً ، ولا يكتفون بذلك ، بل يقفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل ، وقد تمخض عن أمثال أخرى فتروى فى نضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلى بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلى وإن اختلفت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذى ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فنالحق أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية ، وخاصة أكثر ما رواه عبَّيد ابن شَرِيَّة ، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فُقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ دَرَج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الأولى على نحو ما ترتب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتبونها أو يؤلفونها في تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها في كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهي تتخذ عندهم طريقتين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو في أثناء قصة جاهلية ، كذلك الأمثال التي تقرأها في قصة الزبَّاء من مثل : « لا يطاع لقصير أمرٌ » و « لأمرٍ ما جَدَعَ قصيرٌ أنفه » و « بيدي لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميداني ثمانية عشر مثلاً . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذي زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمي ابتنى قصرأ له يسمى الخورنق ، بناه له رومي يسمى سنمَّار ، فلما أتمه قال له سنمار : إني أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدعَّنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرُمي من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سنمَّار .

وأما الطريق الثاني فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغرق في القدم مثل لقمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التي كانت تنزل في الأحقاف ، والتي بادت ولم تبق منها باقية في الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم^(١) وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُدكَرُّ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والشكرَاء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم^(٢) كما ينص على ذلك المفسرون^(٣) . ولقد تم لقمان حفَّت الأسطورة به وبجياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأنباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قوياً قوة

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي (طبعة القاهرة)

٣٤٠ وتفسير أبي حيان ١٨٦/٧ وانظر .

خزافة الأدب للبغدادي ٧٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ١٨٣/١ وما بعدها

و ٣٠٤/٣ .

(٢) البيان والتبيين ١٨٤/١ .

خارقة حكيمًا بحكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعةِ نَسورٍ وأن كل نسرٍ منها عاش ثمانين سنة وكان لُبْد آخرها، وبه ضربوا المثل في طول العمر فقالوا « طال الأبد علي لبْد »^(١). ونُسبت إلى لقمان في عصور متأخرة طائفة من الأفاضل أريد بها إلى العظة والاعتبار، وسميت أمثال لقمان، وهي مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف. وقد زعم هالر «Heller» كاتب مادة لقمان في دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل: (أ) مرحلة جاهلية وفيها يترأى لقمان عاد الأسطوري الذي يقال إنه عاش عمر سبعة نَسور وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر، حتى كان لُبْد الذي ذكره شعراؤهم كثيراً. (ب) مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به في الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور^(٢) بن ناحور ابن تارخ. (ج) مرحلة متأخرة، وهي مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان ».

ومن المحقق أن «هالر» مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان، لسبب بسيط، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم، فهما ليسا شخصا واحداً بل هما شخصان. وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثاني تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه، وهي تُطَبَعُ بطابع ديني^(٣). واشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكرم بن صَيْقِي وربيعة بن حنْذَار وهرم بن قُطْبَة وعامر بن الظَّرْب ولَيْبِيد بن ربيعة »^(٤) وأحْكَمُهُم أكرم بن صَيْقِي التيمي وعامر بن الظَّرْب العدواني، فأما أكرم فكان من المعمرين^(٥)،

- (١) انظر المعمرين للسجستاني ص ٣ وأخبار عبيد بن شرية ص ٣٥٦ والخزانة ٧٧/٢ والميداني ٣٧٥/١.
 (٢) انظر الثعلبي ٣٤٠ وتفسير أبي حيان ١٨٦/٧.
 (٣) البيان والتبيين ١٤٩/٢.
 (٤) البيان والتبيين ١/٣٦٥.
 (٥) انظر في أكرم المعمرين للسجستاني ص ١٠ والأغاني (طبعة السامى) ٧٠/١٥ ومجمع الأمثال ١٤٥/٢ وجمهرة الأمثال العسكري على هامشه ١٢٠/١.

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات في الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطي في المزهرة طائفة منها نقلاً عن ابن دريد في أماليه ، وهي تجري على هذا النسق (١) :

« رَبِّ عَجَلَةٌ تَهْبِئُنَا (٢) . اذْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ . المرء يعجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغى . شر التصرة التعدي . ألم الأخلاق أضيقتها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رَبِّ قَوْلْ أَنْفَذْ مِنْ صَوْلٍ (٣) . الحرُّ حرٌّ وإن مسَّ الضر . العبد عبد وإن ساعده الجدد (٤) . إذا فرغ الفؤاد ذهب الرقاد . رَبِّ كَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ اِكْتِمَامٌ . حافظ على الصديق ولو في الحريق . ليس من العدل سرعة العدل . ليس يبسر تقويم العسير . إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مَلُومٌ . قد يبلغ الخضمُّ بالقضم (٥) . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بعل ستثيم (٦) . الحر عزوف . لا تطمع في كل ما تسمع . »

وعامر مثل أكرم يدخل في المعمرين (٧) ، ويقال إنه « لما أسنَّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هوفته (٨) » عن الحكم وجرار عن القصد . وكانت من حكيما العرب حتى تجاوزت في ذلك مقدار صحر بنت لقمان وهند بنت الخس وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس في ذلك :

لدى الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العَصَا وما علم الإنسانُ إلا ليعلم (٩) «
وكان مثل أكرم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذوا الإصبع العكدواني في بعض شعره فقال (١٠) :

- (١) المزهرة للسيوطي (طبعة الحلبي) ١/١
(٢) الريث : البطة أى رب عجلة تفوت على صاحبها حاجته
(٣) الصول : الاستطالة في الحرب .
(٤) الحد : الحظ .
(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .
(٦) تثيم : يهلك عنها الزوج .
(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميداني في المثل : إن العصا قرعت لدى الحلم .
(٨) فه : حاد وجرار وانحرف .
(٩) البيان والتبيين ٣/٣٨ .
(١٠) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣/٩٠ .

ومنا حَكْمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه^(١).

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيّنون قائلها ، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل ، ممن لا يمجّدون ولا يحفل بهم الناس ، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال ، كقولهم : « بَعِيْنِ ما أَرِيْنِكَ » فإن معناه : أسرع ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علق عليه أبو هلال العسكري بقوله : « هو من الكلام الذي قد عُرِفَ معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه^(٢) » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضَيَّعَتِ اللَّيْنِ »^(٣) بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون في المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . ففي أمثالهم : « أعط القوسَ بارِها^(٤) » بتسكين الياء في بارِها والقياس فتحها ، وفيها أيضاً : « أجنأؤها أبنأؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جنأتها بنأتها » لأن فاعلا لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشد على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغائهم وفصحائهم من أمثال أكرم بن صَيْقِي وعامر بن الظَّرب ، وكان خطباؤهم المقروءون كثيراً ما يعمدون إلى حشدها في خطابهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع^(٥) » وتبع شعراؤهم خطباءهم يودعونها أشعارهم . ومن ثم كُنَّا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقي ، فإذا هو شطر

بعد فوت أوانها .

(٤) أي استعن على ما تعمل بأهل الحدق

والمهارة .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١ ، ٢/١٩٩ .

(٢) جمهرة الأمثال للمسكوي على هامش

مجمع الأمثال للميداني ١/١٦٨ .

(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ في بعض عباراتها احتفالاً بتوازن الكلمات توازناً ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النّظّام لها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية (١) » وقرأ هذه الأمثال :

تجوع الحرّة ولانا كل بشدّ يبيها (٢) — المقدرة تُذهب الحفيظة — مقتل الرجل بين فكيه (٣) — إنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئب ظم — في الجريرة تشرك العشيرة (٤) — وقد يأتيك بالأخبار من لم تزود (٥) — كذى العُرّ يُكوى غيره وهوراتع (٦) — استنوق الجمل (٧) — كالمستجير من الرمضاء بالنار (٨) — حلب الدّهّر أشطّره (٩) — يخبط خببط عشواء (١٠) — المنيّة ولا الدنية (١١) — تحت الرغوة اللبن الصّريح (١٢) — هدّنة على دخن (١٣) — رمثى بدائها وانسلت .

فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنعيم الموسيقى للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسم المعنى ويزيده حدة وقوة . والحق أن كل شيء يؤكد أن العرب في الجاهلية عشوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جملّ وعز أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفنّهم في لحن القول » وقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » . وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلاتقهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هي القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

(٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .

(٩) أشطره : الأشطر : أخلاف الناقة ، يضرب مثلاً لمن عرك الدهر .

(١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلاً في التعمّر .

(١١) الدنية : العمل الدناء .

(١٢) الصّريح : الخالص .

(١٣) دخن : حقد .

(١) مجمع الأمثال ٥/١ .

(٢) يضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الحسية .

(٣) بين فكيه : أي لسانه وما يتكلم به .

(٤) الجريرة : الخناية .

(٥) شطر بيت لطفرة .

(٦) شطر بيت للنايفة .

(٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلاً

لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه .

الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغي أن نحترس مما رواه منها صاحب الأملى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اهتمامنا لنصوصها لا ينتهي بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهي بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين^(١) ، فقد كان كل شيء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال وحوك الكلام ، وأسعفتهم في ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من خلاصة ولسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أوفى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انشبالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهـر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب^(٢) » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن عُلانة وعامر بن الطفيل إلى هـرم بن قُطبة الفزاري^(٣) ومنافرة

(١) في الأدب الجاهلي لطف حسين ص ٣٧٤ . (٣) أغاني (سامي) ٥١/١٥ .

(٢) البيان والتبيين ٢٨/٣ .

القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي إلى ربيعة بن حنّار الأسدي^(١) .
 واستخدموها في الحضر على القتال وبعث الموحدة في نفوس قبائلهم ودفعها إلى
 نيران الحرب وتراميمهم في أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائي^(٢) :

وخطيبٍ إذا تمعرتِ الأوزُ جهُ يوماً في مأقِطٍ مشهودٍ^(٣)
 ويقول عامر المحاربي في مديح قومه^(٤) :

وهم يدْعُمُونَ القولَ في كل موطنٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظماً^(٥)
 يقوم فلا يعيا الكلامَ خطيبينا إذا الكربُ أنسى الجبسَ أن يتكلما^(٦)

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح
 وإصلاح ذات البين وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبي^(٧) :

ومتى تقمُ عند اجتماعِ عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفصلُ

وكانوا كثيراً ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء ، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي
 الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحياه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفي السيرة النبوية
 ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان
 يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو
 معروف عن وفد تميم وخُطبة عطار بن حاجب بن زُرارة بين يديه^(٨) . وكان ذلك
 سنة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رياسة وسيادة .
 يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كَلْدَة^(٩) :

أبادُليجةَ مَنْ يكفَى العشيرةَ إذْ أمسوا من الخطبِ في نارٍ وبلبالبِ
 أم من يكون خطيبَ القوم إذ حفلوا لدى الملوك ذوى أيدٍ وأفضالٍ^(١٠)

- (١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .
 (٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .
 (٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت .
 المأقِط : موضع القتال .
 (٤) المفصليات ، القصيدة ٩١ .
 (٥) كظماً : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .
 (٦) الجبس : النيم المنقطع .
 (٧) أغاني (سامي) ٩/٩٣١ .
 (٨) تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٧١١ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .
 (٩) نقد الشعر لقدماء (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣ .
 (١٠) أيد : قوة .

وقد يَنبَرُونَ في الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم ، على نحو ما هو معروف عن قُسٍّ وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كبعض ما يروى عن عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي . وكان من عاداتهم في الزواج ، وخاصة زواج أشرفهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها ، وخطبة أبي طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء - : باسمك اللهم ذُكرت فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت » (١) . ويقول كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب (٢) ، ويتحدث عن خطاباتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدائن والوَبَرِّ والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستويًا في الجودة ، ومتشاكلًا في استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقه الحسان والتفت الجياد . . . ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع (٣) » .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفًا من تعدد أنواعها وخوضها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفاة على الأمراء أو النصح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكف عن القتال أو في المناقرات والمفاخرات ، فقد استقر في نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثر من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق في البيان والتبيين أثباتًا طويلة بأسمائهم ومواقفهم مؤردًا من حين إلى حين فقرًا وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافًا من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم في كتب الأدب والتاريخ من خطب ، ومن ثمَّ سنعمد عمدًا إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التي تصور بيانهم وبراعتهم في هذا اللون من ألوان نثرهم ، لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آحادًا من الأزمنة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

(٣) البيان والتبيين ٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ١١٦/١ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع في صُورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يمجج بهم ، من مثل قيس بن شماس في يثرب ، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذي اعترضت ابنته النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع ^(١) . أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونُفَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ^(٢) . ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هياً لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهي تشبه مجلس شيوخ مصغراً ، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون ^(٣) ، ومن عُرف فيها بالخطابة عتْبة بن ربيعة وسُهَيْل بن عمرو الأعمى ، وهو الذي قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع نَتِيئَتَيْهِ ^(٤) السُّقْلَيْنِ حَتَّى يَدُلَّعَ ^(٥) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثل فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده ^(٦) » ومن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن الظَّرب في عدوان وربيعة ^(٧) بن حُذَار في أسد وحنظلة بن ضرار في ضَبَّة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل ^(٨) ، وعمرو ابن كلثوم في تغلب ^(٩) وهانئ بن قبيصة في شيبان ، وهو خطيب يوم ذي قار ^(١٠) ، وزهير بن جَنَاب في كَلْب وقُضَاعَة ^(١١) ، وابن عمار في طي ، وهو خطيب مذحج كلها ^(١٢) . ومن خطبائهم ليبيد بن ربيعة العامري ، ومن قوله ^(١٣) :

وَأَخْلَفُ قَسًا لَيْتَنِي لَوْ أَنِّي وَأُعْبِي عَلَى لَقْمَانَ حَكَمَ التَّدْبِيرِ
وَهَيْدَانَ بْنَ شَيْخٍ الَّذِي قَالَ فِيهِ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : رَبِّ خَطِيبٍ مِنْ
عَبَسَ ^(١٤) ، وَخُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرٍو وَالْعُشْرَاءِ بْنِ جَابِرِ الْغَطَفَانِيَانِ ^(١٥) ، وَمِنْ خَطْبَاءِ

- | | |
|--------|--|
| (١) | البيان والتبيين ١/٣٥٨ - ٣٦٠ . |
| (٢) | تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١ . |
| (٣) | السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ١٢٤/٢ . |
| (٤) | الثنيتان : الأضراس في مقدم الفم . |
| (٥) | يدلج : يسترخي ، فلا يحسن النطق . |
| (٦) | البيان والتبيين ١/٣١٧ . |
| (٧) | نفس المصدر ١/٣٦٥ والأغاني |
| (٨) | نفس المصدر ١/٣٤١ . |
| (٩) | نفس المصدر ٢/١٤١ . |
| (١٠) | أغاني (ساسي) ١٣٧/٢٠ . |
| (١١) | نفس المصدر ٢١/٦٥ . |
| (١٢) | البيان والتبيين ١/٣٤٩ . |
| (١٣) | البيان والتبيين ١/١٨٩ . |
| (١٤) | البيان والتبيين ١/٢٧٣ . |
| (١٥) | نفس المصدر ١/٣٥٠ . |

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل^(١)، وهترم بن قُطبة الفزاري^(٢) الذي احتكم إليه علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما: - كما مر بنا - : « أنتما كركبتي البعير الأدرم (الفحل) تقعان على الأرض معاً^(٣) » .

ومن خطباء تميم المفوهين أكم بن صيفي وضمره بن ضميرة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زري عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقلته، فقال للنعمان : « تسمع بالمُعَيْدِي لَأَن تراه » فقال : أبيت اللعن ! « إن الرجال لا تُكَال بالقُفْزَانِ^(٤) ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك^(٥) يُسْتَقَى بها، وإنما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه، إن صال صال بيجتان، وإن قال قال ببيان^(٦) » . ومن خطباء تميم أيضاً عطارد بن حاجب بن زُرارة وهو خطيب وفدها، كما مر بنا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عمرو بن الأهمم المنقري ، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه^(٧) ، ويروى أن الرسول سأله عن الزُّبْرَقَانِ بن بدر فقال « مانعٌ لحوزته ، مطاعٌ في أدنيه » فقال الزُّبْرَقَانُ : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر^(٨) المروعة ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال : « يا رسول الله ! رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إن من البيان لسحراً^(٩) » . ومن خطباء بني منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه : هذا سيدُ أهل الوبر^(١٠) ، وهو الذي قال فيه عبدة بن الطبيب حين مات^(١١) :

وما كان قيسٌ هُلكهُ هُلكٌ واحدٍ ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدهما

(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .

(٨) زمر : قليل .

(٩) البيان والتبيين ١/٥٣ .

(١٠) البيان والتبيين ٢/٣٣ .

(١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .

(٣) أغاني (سأسي) ١٥/٥١ .

(٤) القفزان : جمع قفيز ، وهو مكيال عراقي .

(٥) المسوك : جمع مسك وهو الجلد .

(٦) البيان والتبيين ١/١٧١ .

ومن خطباء إيراد قُسُّ بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : رأيتُه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعادوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت (١) . ويقول الجاحظ : « وإيراد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى رَوَى كلام قُسِّ بن ساعدة وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته ، وهو الذى رواه لقريش وللعرب ، وهو الذى عَجَّب من حُسْنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال (٢) » . على أن ابن حجر آثم هذا الإسناد (٣) ، وخاصة بعد توسُّع الرواة فى خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام ، وبملا ريب فيه أن لها أصلاً صحيحاً تزيد فيه الرواة .

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصح ما أُثر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً فى أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة فى هذا اللون من ألوان اللسان والبيان . وكان مما بهم على إحسانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة ، وكان قلما يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجاياه ، حتى تساق له القلوب بأزمتها وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها . وكل شئ يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر ، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفسر ط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيدهم عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهانهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوق وتسرحوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (٤) » . وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لردده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (٥) » .

وقارن باللائق المصنوعة للسيوطى ٩٥/١ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٥) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٨ .

(٢) نفس المصدر ١/٥٢ .

(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ١/٢١٠ .

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر - إذا استثنينا زهيراً - كان هو الذي يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفهم هجاء وتناؤد بالألقاب والأحساب والمآثر والمعائب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد في خطاباتهم ، فكانوا يخطبون على رءوسهم في الأسواق العظام والجامع الكبار^(١) ، وقد لاثوا العمائم على رؤوسهم ، وفي أثناء خطاباتهم كانوا يمسكون بالعصي^٢ والمخاضر والقضبان والقنن والقيسي راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول^(٢) :

مَا إِنْ أَهَابُ إِذَا السُّرَادِقُ عَمَّهُ
قَرَعُ الْقَيْسِيِّ وَأُرْعَشُ الرَّعْدِيدُ

ووقفت الشعوبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصي والمخاضر ، ورد عليهم الجاحظ في بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله في تلك العادة : « إن حَمَلَ العصا والمخضرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناج والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصود عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون في حوارهم ، والمخاضر بأيديهم إلفاً لها وتوقفاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها^(٣) » وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام ، يقول النمر بن تَوَلَّب^(٤) :

أَعْدَنِي رَبٌّ مِنْ حَصْرٍ وَعِيٌّ
وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالَجُهَا عِلَاجًا

ويقول أبو العيال الهذلي :

وَلَا حَصْرٌ بِخُطْبَتِهِ إِذَا مَا عَزَّتِ الْخُطْبُ

وذموا في الخطيب أن يكثر من مسسه لذقنه وشواربه ولحيته ، وكأنما رأوا في ذلك

(٤) انظر في هذا البيت وتاليه البيان والتبيين

. ٣/١

(١) البيان والتبيين ٧/٣ .

(٢) نفس المصدر ٣٧٢/١ ، ٩/٣ .

(٣) البيان والتبيين ١١٧/٣ .

ضرباً من الخرق في استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزني في بعض هجائه (١) :

إذا اجتمع القبائل جِئْتَ رِدْفاً وراء الماسحين لك السبباً (٢)
فلا تُعْطَى عَصَا الخُطباءَ فيهم وقد تُكْفَى المقادَةَ والمقالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون في جهازة الصوت ويتحلون سعة الأشداق وهتدل الشفاه ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياي والتشادق ، وقال : أبغضكم إلى الثرثارون المُتَفَيِّهون (٣) .

وإذا ذهبنا نستطيع النصوص عن أساليب خطابهم ، وهل كانوا يعتمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متهم لا يمكن الاعتماد عليه في الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقبة متطاولة تفصل بين العصر الذي دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذي قيلت فيه . ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رُويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم رُوِي مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوا الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيهما لثُمَّيل بن عبد العززي في تاريخ الطبري (٤) فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أوطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس ، فقد رُويت في شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ، وهي مسجوعة (٥) ، ومثلها منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطثمة المروية في كتاب الأغاني ، فهي الأخرى مبنية على السجع (٦) . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضمرة بن ضمرة وهريم بن قُطبة والأقرع بن حابس وثُمَّيل بن عبد العززي كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حنّار (٧) »

(٤) الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١ .
(٥) النقائض ١/١٤١ .
(٦) أغاني (طبعة السامي) ١٥/٥١ .
(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٧٢ .
(٢) السبيل : مقدم الحية . يهجو بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣ . المتفهيق : الذي يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به .

كما يقول في موضع آخر إنهم كانوا يستخلمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ،
بينما كانوا يستعملون المشور المرسل في خطب الصلح وسكّل السخيمة وعند المعاقدة
والمعاودة . وكأنهم عرفوا في الجاهلية لوزين من الخطابة لونا مسجوعاً ولونا مرسلاً .
ولا تظن أنهم في خطابهم المرسلة لم يكونوا يروون فقد كانوا يعملون إلى ما يثير
السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثروا فيهم ويبلغوا ما يريدون من أسئلتهم ،
يقول الجاحظ : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال
الخطب ، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاليم التدبير ومهمات الأمور ميثوه^(١)
في صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومته الثقف ، وأدخل الكبير ، وقام على
الخلاص أبرزوه محككاً منقحاً ومصنفاً من الأدناس مهذباً^(٢) . »

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التي بقيت من تراجمهم ، تلك التي
يروها الجاحظ ، يشرح حقاً أنهم كانوا يتغنون التجويد في كلامهم ، تارة بما
يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة .
ودائماً يعنون بهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجة ، وتصوير أشعارهم
جوانب من ذلك كقول لبيد لهرم بن قُطبة حين احتكم إليه عامر بن الطفيل
وعلقمة بن عُرثة^(٣) :

إنك قد أوتيت حكماً معجبا فطَبَّقَ المَفْصِلَ واغْنَمَ طَيْباً
وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلاً قاطعاً يفصل بين الحق
والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصِلَ العَظْمين . ومن ذلك قولهم فلان يفلُ الحَزْرَ
ويصيب المَفْصِلَ ويضع الهِناء مواضع التَّقَبِ^(٤) . والعبارة الأخيرة مستعارة من
صنيع الحاذق حين يلمّ الحرب بإبله فيضع دواءه في مواضعه الدقيقة ، يمثلون بذلك
للمصيب الموجز في خطابه وبيانه ، كما مثلوه في التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق
الذي يصيب عين الموضع من جزوره سواء في العظم أو في اللحم . وقد يشبهون
كلامهم بالسهم المصمى ، ومن ثم استخدموا كلمة مِدْرَه للشجاع والخطيب المفلق
في الوقت نفسه ، وأصل معناها المُرَامى ، فاستعيرت من رامى السهام لرامى الكلام

(٤) نفس المصدر ١٠٧/١ . الهناء :
القطران . والتقب : أول ما يبدو من الحرب
في الإبل .

(١) ميثوه : ذلوه .
(٢) البيان والتبيين ١٤/٢ .
(٣) البيان والتبيين ١٠٩/١ .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكابة به ، يقول زهير بن أبي سلمى (١) :
 ومِدْرَةٌ حَرْبٍ حَمِيهَا يُتَّقَى بِهِ شَدِيدُ الرَّجَامِ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
 ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسن، وافتخروا بذلك طويلا على
 نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرِي يصف ما فيه وفي عشيرته بنى
 مِنْقَرٍ مِنَ الْخُطَابَةِ وَالْفَصَاحَةِ (٢) :

إِنِّي أَمْرٌ لَا يَعْتَرِي خُلُقِي دَنْسٌ يُفَنِّدُهُ وَلَا أَفْنٌ (٣)
 من «مِنْقَرٍ» فِي بَيْتٍ مَكْرُمَةٍ وَالْأَصْلُ يَنْبِتُ حَوْلَهُ الْغُضْنُ
 خُطْبَاءٌ حِينَ يَقُومُ قَائِلُهُمْ بِيضُ الْوَجْهِ مِصَاقِعُ لُسن

وقد حذروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد
 وإنه غضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة (٤) :

بِحُسامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْكَلِمُ الْأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ
 ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أجسوا بجمال ما يلفظ به خطبائهم أننا
 نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشاة وباللؤلؤ والديباج وأشباه ذلك ، يقول
 أبو قردودة الطائي في رثاء ابن عَمَّارٍ خُطِيبِ مَدْحِجٍ وَقَدْ مَاتَ مَقْتُولًا (٥) :

وَمِنْطِقِي خُرُقٌ بِالْعَوَاسِلِ لَدَى كَوْشَى الْيُمْنَةِ الْمَرَّاحِلِ (٦)

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة
 في الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون في كل موقف :
 في المفاخرات وفي الدعوة إلى السلم أو الحرب وفي النصيح والإرشاد وفي الصهر
 والزواج . وابتغوا دائما في كلامهم أن يؤثر في نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب
 بيان وبلاغة .

(١) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٢٢٣ .
 (٢) البيان والتبيين ١/٢١٩ .
 (٣) يفتد : يتقص ويضعف . الأفن : جمع
 (٤) البيان والتبيين ١/١٥٦ . أرغب :
 أوسع : الكل بسكون اللام : الجرح .
 (٥) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
 (٦) العواسل : الرماح . المراحل : جمع
 مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرجال .
 ضعف الرأي .

سجع الكهان

كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يُلْقَى إليها توابعها من الجن ، وكان واحداً يسمّى كاهناً كما يسمى تابعه الذي يوحى إليه باسم « الرئىي » . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم في كل شئوهم ، وقد يتخذونهم حكاماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمّية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي ، وقد نفّر هاشماً على أمّية^(١) . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شئوهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو تحرّ ناقة^(٢) ، أو قعود عن نصرة أحلاف^(٣) ، أو نهوض لحرب ، ففي أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رقى لهم ، فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبني أسد : « يا عبادى ! قالوا لبيك ربّنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الرّبرب^(٤) ، لا يعلق رأسه الصّخب ، هذا دمه ينشعب^(٥) ، وهذا غداً أول من يسلب ، قالوا : من هو يا ربّنا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس نجاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبته » وقتلوه^(٦) . وكثيراً ما كانوا يندرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر^(٧) ، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم^(٨) .

فنزلة كهانهم في الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها ،

- (١) السيرة الخلبية ٤/١ .
 (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٨/١١ .
 (٣) أغاني ١١/١٤٠ .
 (٤) الربرب : القطيع من الظباء .
 (٥) ينشعب : يسيل .
 (٦) أغاني ٩/٨٤ .
 (٧) الأملال للقالى ١/١٢٦ والسيرة النبوية ٤٣/١ ، ٢٢١ .
 (٨) السيرة النبوية ١/١٥ وما بعدها .

ومن ثمَّ كان العرب يصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، وما يلاحظ أنهم كانوا يكثرُون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال . وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبلغ القصَّاص ، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية، فن ذلك أن شقَّ بن الصَّعب كان شقَّ إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيج بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق^(١) ، وربما كان أحذب . ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدؤسي وقد أدرك الإسلام ودخل فيه^(٢)، ومنهم المأمور الحارثي ، كاهن بني الحارث بن كعب^(٣) ، وحنافر الحميري ، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه « شصار^(٤) » . وأكهنهم عزى سلمية، يقول الجاحظ: « أكهن العرب وأسجعهم سلمية بن أبي حية وهو الذي يقال له عزى سلمية^(٥) » . ومن قوله^(٦) : « والأرض والسماء ، والعقاب والصفعاء، واقعة ببقعاء، لقدنقر المجد بن العُشراء للمجد والسناء^(٧) » . ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات ، وربما كنَّ في الأصل من النساء اللاتي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشعشاء^(٨) وكاهنة ذى الخلصة^(٩) والكاهنة السعدية^(١٠) والزرقاء^(١١) بنت زهير والغيطلة القرشية^(١٢) وزبراء كاهنة بني رثام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت : « واللوح الخافق والليل الغاسق والصبح الشارق والنجم الطارق والمزّن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدوختلاً، ويحرق أنياباً عَصلاً، وإن صخر الطود لينذر رثكلاً، لا تعجدون عنه معلاً^(١٣) » .

- | | | | |
|--------|---|-------|---|
| (٨) | جمع الأمثال للميداني ٩١/١ . | (١) | عجائب المخلوقات للقزويني ١٧١/١ . |
| (٩) | نفس المصدر ٢٢٣/١ . | (٢) | السيرة النبوية ٢٣٣/١ . |
| (١٠) | نفس المصدر ٥٤/٢ . | (٣) | الأمال ٢٧٦/١ واسمه فيه المأمون ، |
| (١١) | أغاني (دار الكتب) ٨١/١٣ . | وانظر | ١٥١/٣ والأغاني ٧٠/١٥ . |
| (١٢) | سيرة ابن هشام ٢٢١/١ . | (٤) | الأمال ١٣٣/١ . |
| (١٣) | اللوح هنا : الريح . الوادق : المطر . | (٥) | البيان والتبيين ٣٥٨/١ . |
| | يأدو : يَحْتَل . يحرق أنياباً عَصلاً : كناية عن | (٦) | نفس المصدر ٢٩٠/١ . |
| | الغضب والشر . عَصلاً : موجة . الطود : | (٧) | الصفعاء : الشمس ، بقعاء : ماء |
| | الجبل . المعل : الملجأ . انظر الأمالي ١/٢٦٦ . | | أوموضع . نقر : حكم بالقلبة . بنوالعشراء : |
| | | | عشيرة من فزارة . السناء : الرفعة . |

ونحن لا نظمن إلى ما يروى في كتب التاريخ والأدب من أقوال جرت على السنة هؤلاء الكهان والكاهنات، فإن بُعد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلي يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال، إذ من الصعب أن تُروى بنصّها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان. وإنما استشهدنا ببعض منها للدلالة على أنه ثبت في أذهان من تحدثوا عن الكهّان والكاهنات في الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كلامهم، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما رويناه من أقوالهم. ومعنى ذلك أنه وُجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم، فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعز: (ولا يقول كاهن قليلاً ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى: (فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال: (إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون).

وما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديث المروي عن أبي هريرة، فقد حدث أنه «اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاخصصنوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسول الله أن دية جنتيها غرّة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها^(١). . . فقال حمل بن النابغة الهذلي: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل^(٢)، فمثل ذلك يُطل^(٣)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهّان، من أجل سجعه الذي سجع^(٤)». ويقول الجاحظ: «كان حازي (كاهن) جهينة وشقيق وسطيح وعزرى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع^(٥)». وإذا صح أن ما يروى في كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب،

(٤) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ١١٠/٥
وانظروا مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ .
(٥) البيان والتبيين ٢٨٩/١ وما بعدها .

(١) عاقلة المرأة: عصبها الذين يتضامنون
معا في دفع الدية .
(٢) استهل: صاح .
(٣) يطل: يهدر دمه .

بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمه ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كى يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم ، إذ يؤمّنون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعاني من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا في وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبّههم الذى يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التى تخدع السامع وجوهاً من الخلد ، ومن ثمّ كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذى يضاف إليهم ، فإنه يلاحظ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجى والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم فى هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يخلقون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير فى نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع النبى كان يقابله - كما قدمنا - سجع آخر فى خطابهم ، بل فى كلامهم وأمثالهم التى دارت بينهم . ولعل فى ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عشوا بنثرهم كما عشوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

خاتمة

خلاصة

حاولتُ في الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربي في العصر الجاهلي ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة في إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يَمَّموا حوض المحيط الهندي آخر موجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم في لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم في حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضرباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا في آخر الأمر إلى صورة خطهم العربي المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلي وحددته بنحورن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجاً في أول هذا العصر باكتمال الخط العربي ، كما نفاجاً بهذا الشعر الناضج الذي يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم في الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهي بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهي مركز تجارتهم وقوافلهم التي تربط بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهي وحدة دعمها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطلب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا بجزيرتهم إلى ما يشبه ميداناً حربياً كبيراً ، ففي كل مكان عراك وقتال وفي كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجلتها علماء اللغة والأدب في العصر العباسي كحرب البسوس وحرب
داحس والغبراء .

وانتقلت من ذلك أبحاث في حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع
القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هي أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم
شئ يشدُّ من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان
كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإياء الضيم ، وتخللت
ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات
عند بعض الشباب أمثال طرفة شكل فتوة جامحة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة
عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة في
الجنوب والشرق واحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان
البدو يعيشون على رعى الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون
مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات
المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ،
ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم
الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت
الكعبة في مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يحجون إليها في أشهر معلومات . على أن
نفرًا منهم شككوا في أواخر هذا العصر في دينهم الوثني وتمسوا دين إبراهيم ويسمَّون
المتحنفة والحنفاء وكانوا إرهاباً لظهور الإسلام والدعوة المحمدية . وكانت
النصرانية في أثناء ذلك تنتشر في القبائل المحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من
اليهود ينزلون في واحات الحجاز وفي اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم
وينفرون من دينهم .

ولما تمَّ لي بيان هذه الجوانب أخذت أبحث في اللغة العربية وعناصرها السامية
القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المثبتة في النقوش ، وهي النودية واللحائية
والصنقوية ، تلك التي كتبت نقوشها بالخط المُسند الجنوبي ، ثم اللهجة النبطية ،
وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامي ، ومنه نشأ تطور الخط العربي في الحجاز .
وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت في الدثور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادي حتى تتكامل تكاملاً تاماً وتعم بين القبائل النجدية وفي الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هي اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً في المجال الأدبي ، بحيث كان الشعراء في كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلاً في معرفة اللهجة التي سادت بين القبائل في الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان ، وأثبت أنها لهجة قريش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تتم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلي .

وبحث عقب ذلك في رواية الشعر الجاهلي وتدوينه ، مبيناً كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالها وشعرائها على حمله جيلاً بعد جيل ، حتى تسلّمه منهم طبقة من الرواة المحترفين في البصرة والكوفة ، وكان بينهم الثقة الذي لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبي والأصمعي والمهم الذي يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفي تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلي يدون ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه . والذي لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصروا على كل ما شكوا فيه من رُواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضي يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث في هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلي جميعه منحول على أهله ، وهب كثير من المستشرقين يردون عليه ، ومن ذهب مذهبه في تعميم الحكم على الشعر الجاهلي بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى همدى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير في الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربي » . وقد ناقشت آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلاً كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكن بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبي

والأصمعي ، وهو الذي نستند عليه في دراسة الأدب الجاهلي ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلي دقيق . زمن أجل ذلك وقفتُ عند مصادره لأدلّ على قيمتها ومدى ثروتها .

ومضيتُ أبحثُ في خصائص الشعر الجاهلي ، فتحدثتُ عن نشأته وأنها انظمرت في ثنايا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية شيئاً نستين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة النموذجية المعروفة للقصيد الجاهلية ، وهي صورة شاعت بين القبائل جميعاً ، وكان للقبائل المضرية منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظتُ فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التي كانوا يرتلون بها لأبتهم ، كما وقفتُ عند معانيه ولاحظتُ أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة.

وأفردتُ بعد ذلك فصلاً لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين المحللين في العصر الجاهلي ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى . واعتمدتُ في دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعي لدواوينهم ، وبدأتُ بامرؤ القيس ، فتحدثتُ عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثتُ عن ديوانه ، وبخنته بحثاً داخلياً ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعي ، واستظهرت أن تكون المعلقة وتاليتها في ديوانه صحيحيتين في جملتهما ومثلهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبي عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرّض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزعُ شعره على دورتين في حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورتُ خصائصه الفنية مبيّناً مترلته في الشعر الجاهلي وكيف عدّه أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابغة الذبياني ، فتحدثتُ عن حياته ، وكيف أمضاها في بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذبيانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة في داخل الجزيرة وفي مكة وسوق عكاظ . وبحثتُ في ديوانه على ضوء رواية

الأصمعي ، وأنكرت منها خمس قصائده على رأسها قصيدته في المتجرده . وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة في حياته ولا في شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبيناً قدرته على الوصف ورصْف الموضوعات وتنسيق المعاني وابتكار الصور والأخيلة ، يهديه في ذلك كله ذوق مهذب ، هذبته الحضارة التي نعم بها في الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسٍّ دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبي سلمى المزني ، وقد نشأ في بني مرة الذيبانيين بحيث عدَّ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حجر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحتمل عنهما جميعاً الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً للمدرسة عُرِفَتْ به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعي . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتجوير في قوالبه وصيغته تحبيراً لاحظه القدماء إزاء بعض مطولاته ، فقالوا إنه يصنع القصيدة في حول كامل وإن له سبع حوليات . وهو يضم إلى هذا التجوير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يعدُّ حقاً شاعر التصوير في العصر الجاهلي وكان يكثر من الحكيم ومن الدعوة إلى الخير والسلام ، فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التي كان ينفقها متنقلاً في أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطرت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال ، وتصادف أن كان راوية شعره مسيحياً ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القُصَّاصُ والوعاظ المسلمون ، فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التي تحكي قصة وفاء السمائل . وجعلنا هذا كله نشك في كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نُسبُ له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلواً في المديح وتأثراً دقيقاً بالحضارة التي عاصرتها في الحيرة ، حتى يقترب شعره من شعر العباسيين لا في معانيه فحسب ، بل أيضاً في سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

في شيء عما نقرؤه للعباسيين ونقصده وصفه للخمر وغزله وتدلّفه فيه وما قد يلاحظ عندنا من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

وخرجتُ من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا في اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرستُ أولاً الفرسان وما يصورون في أشعارهم من بطولتهم ومثاليتهم الخلقية الرفيعة . ثم درست الصعاليك وما يصورونه في أشعارهم من غاراتهم وما نحسّه عند نقر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحث في شعراء اليهود مبيّناً كثرة ما نُحلّ عليهم . ووقفت عند النصاري من الشعراء أمثال عدى بن زيد العبادي ، ولاحظت أن شعراً كثيراً زيّف عليه . ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبي الصلت ، إن لم يكن كله ، موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه في موضوعين أساسيين ، هما نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه من العذاب والثواب .

ولما فرغتُ من بحث الشعر الجاهلي وشعرائه انتقلتُ أبحث في النثر الجاهلي ، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهّان . ومن الحق أنهم لم يدوّنوا شيئاً من قصصهم ، غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصور غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضتُ لأمثالم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السّئن والتقاليد . وكان كهّانهم يحاولون التأثير البالغ في نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكد أن الجاهليين حاولوا في نثرهم ما حاولوه في شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم ويخليوا عقولهم وألبابهم .

تخليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلي إنما تُعنى بإبراز خطوطه الأساسية ، ومن المحقق أن هناك خطوطاً صغيرة لا يبرزها البحث ، فنحن مثلاً إنما تحدثنا عن الشعراء المجذّبين ، وتركنا كثيرين لم نكده نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً في بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد في كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولتقف قليلاً عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس ، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حنيفة وعبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة ولييد ، فأما عمرو والحارث فإنهما مُقِلَّان ، وقد تشكك ابن سلام في شعر عبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب^(١) . أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة^(٢) ، وهي قوله :

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةِ تَهْمَدٍ وَقَفْتُ بِهَا أَبْكِي وَأَبْكِي إِلَى الْغَدِ^(٣)

وفيها أبدع في وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ، وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالا ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعاً يتداخلان في شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضاً فإنه مقل للأسطورة تجرى في أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه في تضاعيف كلامنا عن الفرسان . ولييد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلاً في الإسلام ، فأولى أن يدرس في المخضرمين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حجر لأن فنه يتدمج في فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شريح^(٤) وعبيد^(٥) بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه في طبقتة - وهي الثانية - بشر بن أبي خازم الأسدي وهو مقل ، وفي شعره مصنوع كثير^(٦) . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرّاً رأينا في أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدى بن زيد العبادي ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عبدة ويذكر له ثلاث قصائد جيد ، ويقول : لا شيء له بعدهن يُذكَر^(٧) .

(٤) الحيوان ٦/٢٧٩ .

(٥) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧ .

(٦) الحيوان ٦/٢٧٩ .

(٧) ابن سلام ص ١١٧ .

(١) ابن سلام ص ١١٦ .

(٢) ابن سلام ص ١١٥ .

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثاني في البيت :

« تلوح كباتي الوشم في ظاهر اليد » .

وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظَّلِيمِ ونعامته (١) . ومن ذكرهم ابن سلام في الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النَّهْشَكِيُّ التَّمِيمِيُّ ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شَفَعَهَا بِمَثَلِهَا قَدَمَاهُ عَلَى مَرْتَبَتِهِ (٢) . أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حلِيزَة وعنرة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حُصَيْنُ ابن الحُمام المرئى والمتلمس (خال طرفة) والمسَيَّب بن عَلس (خال الأعشى) وسلامة بن جندل السَّعْدِيُّ التَّمِيمِيُّ . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قَمَيْثَة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الخَرَج ، وهما مقلان . وجعل في الطبقة التاسعة الحادرة أو الحويدرة ، وقصيدته (٣) :

بَكَرَتْ سُمَيَّةٌ بُكَرَةً فَتَمَتَّعَ . وَغَدَتْ غَدَوْ مَفَارِقٍ لَمْ يَرَبِّعَ .

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المراثي فصلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبي الصَّلْتِ شاعر الطائف ، ومرَّ بنا في حديثنا عن أصحاب الديانات كثرة ما وضع عليه من أشعار . وفي قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المثقَّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يُسَلِّكُ في المقلين . وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غَنَاء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . وما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم في القصص الشعبي ، ويشبههم في هذا الجانب حاتم الطائي الذي طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع في الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلّة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثمّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التي عسى الرواة بلدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارى في حسن الديباجة ورونق الكلام .

(٣) المفضليات رقم ٨ . يربيع بالمكان :
يقيم .

(١) الحيوان ٤/ ٣٦٦ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .